دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الحماقة في كتب الادب والدراسات الادبية
المصدر:	الموقف الأدبي
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	الحسين، أحمد
المجلد/العدد:	مج 21, ع 250,252
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1992
الشهر:	نيسان
الصفحات:	77 - 87
رقم MD:	314041
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	حركة التأليف والنشر، الادب العربي، الحماقة، الادباء العرب، النقد الادبي، الانتاج الفكري
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/314041

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الحماقة
في كتب الأدب والدراسات الأدبية

• أحمد الحسين

ليس الهدف من هذه المقالة دراسة مصادر ادب الحمقى ، رغم أهمية مثل هذه الدراسة، وضرورتها في توثيق المادة العلمية ، وتصويب ما يرد في روايتها من تباين ، واختلاف بين كتاب وآخر .

ولكننا نتطلع الى استخلاص اهداف لانرى انها تقل اهمية عن الجانب التوثيقي. فهي تكشف العلاقة بين الحماقة والادب ، وتسهم في تفهم هذه الظاهرة بعد أن وقفنا على صور من علاقة الحماقة بالمجتمع وبالفئات الاجتماعية .

وفي رصد هذه العلاقة نسعى الى تحليل دوافع الادباء في تدوين ادب التحامق ، ونبين مواقفهم من فنون الحماقة ، وطريقة تبويبهم اخبار اعلامها ، ونوادر ابطالها . ولعل الالمام بهذه القضايا يتيح لنا تكوين تصور فكري يغني معلوماتنا السابقة ، ويزيدها وضوحا وجلاء .

وقبل ان نلج الى اعماق هذه الموضوعات المطروحة نرى ان من الضروري الاشارة الى ان نظرات الادباء ومواقفهم من الحمقى والمتحامقين. ظلت محكومة بواقع وعيهم الفكري والاجتماعي ولهذا لا يجوز لنا أن نحمل تلك النظرات التي يطلقونها هنا أو هناك اكثر مما تحمل ، كما لا يجوز ان ننتقص من بعض جوانب قصورها ، وحالات الوهن فيها انطلاقا من أن الرؤية الى قضية ما تختلف من عصر الى عصر ، ولهذا سنحاول ان نكون موضوعين في التحليل . والاستنتاج بحسب ما تسمح لنا المعلومات ، وما تقدمه لنا المصادر .

ان الاجابة عن تساؤلنا عن أسباب اهتمام الادباء بالحماقة ، واخبار المتحامقين تدفعنا الى قراءة اقوال هؤلاء الادباء كما ترد في مقدمات مؤلفاتهم أو في توطئتهم لابواب الحماقة ، والذي نلاحظه في مقارنة تلك الاقوال ، انها تعبر بشكل أولي عن درجة اهتمام الكتاب ، ووعيهم بهذه الظاهرة . ولعل غايتهم من الاهتمام بها يرجع الى اسباب تأليفية أو ادبية . ونفسية وتربوية، وقد تبرز هذه الاسباب مجتمعة او متفرقة لدى

هذا الاديب أو ذاك ، فنجد اديبا ينطلق من دافع أو أكثر ، وكان حرصنا ان نتتبع تطور تلك الدوافع تاريخيا عسى ان نكتشف من خلال ذلك، التطور الذي طرأ على علاقة الحماقة بالمجتمع ولكننا لم نتبين هذا الانعكاس بشكل واضح ، اذ ان هذه الدوافع تتكرر من كتاب الى آخر .

فالجاحظ الذي تعد مؤلفاته من أقدم المؤلفات التي احتوت مادة غزيرة من أخبار الحمقى ، يورد في اكثر من مكان مقتطفات من نوادر المتحامقين والمغفلين ، والمغرورين ، وهو لا يجمع تلك النوادر في باب خاص ، ولكنه ينثرها في بطون مؤلفاته ، وطريقته في تصنيف المادة تدل على غايته في جمع هذه الاخبار ، وتكشف عن دوافعه ، ومراده .

وقد اعرب عن ذلك في كتابيه « الحيوان ، والبيان والتبيين » وخلاصة رأيه ان اهتمامه بأدب الحمقى يرجع الى عامل أدبي ، تأليفي، فالجاحظ كما يظهر لنا يتخذ من أخبار الحمقى وسيلة لشد اهتمام القارىء ، وابعاد الملل عن نفسه ، وتلك النوادر التي يقتطفها أشبه ما تكون بمحطات للاستراحة والانتقال من الجد الى اللهو ، ومن التعب الى الراحة ، ولذلك وجدناه يوشي مؤلفاته بهذه النوادر قائلا : « وان كنا قد أملناك بالجد، وبالاحتجاجات الصحيحة ، والمروحة لتكثر الخواطر ، وتشحذ العقول ، فانا سننشطك ببعض المقالات، وبذكر العلل الظريفة، والاحتجاجات الغريبة » (١) ونظرة الجاحظ هنا لا تبتعد كثيرا عن نظرة المجتمع الى الحماقة بصفتها مادة للتسلية ، واللهو ، والعبث . وهو لا يغفل عن تعليل دافعه الادبي انطلاقا من تحليل نفسي وتربوي، وكأنه يدافع عن مذهبه في وجه منتقديه، فيلتمس المعاذير ، ويسوق الحجج المقنعة فيقول مرة أخرى : « على أني عزمت — والله الموفق — أن أوشح هذا الكتاب ، وأفصل ابوابه بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الاحاديث ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب الى باب ، ومن شكل الى شكل ، فاني رأيت الاسماع تمل الاصوات المطربة، والاغاني الحسنة ، والاوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها ، وما ذاك الا في طريق الراحة التي اذا طالت أورثت الغفلة » (٢) .

واذا كانت هذه الطريقة في التأليف تبدو غريبة علينا ، فانها كانت مألوفة ليس في زمن الجاحظ فحسب، ولكن في أزمنة متأخرة، وحسب المحلل ان يتصفح المؤلفات الادبية ذات الطابع الشمولي في التأليف ليجد هذا المنهج ركنا اساسيا من بناء الكتاب ، فابن عبد ربه في «العقد الفريد» لايبتعد كثيرا عن خطا الجاحظ ، ونهجه التأليفي. انه كذلك يدافع عن ايراده حكايات الحمقى والمتحامقين . ويغري القارىء بها لانها كما يرى « حدائق مونقة ، ورياض زاهرة لما فيها من كل طرفة ، ونادرة فكأنها أنوار مزخرفة ، أو حلل منشرة ، دانية القطوف من جاني ثمراتها ، قريبة المسافة لمن طلبها فاذا تأملها الناظر ، وأصغى اليها السامع وجدها ملهى للسمع ، ومرتعا للنظر وسكنا للروح ، ولقاحا للعقل ، وسميرا في الوحدة وانيسا في الوحشة ، وصاحبا في السفر، وانيسا في الحضر » (٣) .

ونلاحظ هنا أن اعجاب ابن عبد ربه في هذا النمط من الحكايات جعله يضيف الى الدافع الادبي الذي ذكره الجاحظ اسبابا اجتماعية ، وفوائد عقلية ، ونفسية ، وهذا ما نتبينه ايضا لدى ابن قتيبة في « عيون الاخبار » ولدى النويري في « نهاية الارب » (٤) .

ويرفد هذا الدافع الادبي ، ويتساوق معه منطلق اجتماعي حرص الكتاب من خلاله على الاستفادة من حكايات الحمقى ، لتكون معيارا لما ينبغي على العاقل أن يتجنبه ، ويحذر من الوقوع فيه . وهذا الموقف التكاملي يظهر في كتاب « أخبار الحمقى والمغفلين » لابن الجوزي الذي كشف عن رؤية نافذة في الاقتراب من عالم القاع الاجتماعي لعصره ، ورصد ظواهره ، وتياراته كما برز في مؤلفاته الاخرى عن الاذكياء، والقصاصين، والوعاظ ، والقيان .

وابن الجوزي ينطلق في جمع اخبار الحمقى من دوافع ادبية ، واجتماعية ، ودينية ، فهو يبين الغرض من تأليف كتابه قائلا (٥) « وبعد ، فاني لما شرعت في جمع اخبار الاذكياء ، وذكرت بعض المنقول عنهم ليكون مثالا يحتذى لان أخبار الشجعان تعلم الشجاعة . آثرت ان اجمع اخبار الحمقى والمغفلين لثلاثة أشياء :

الاول : ان العاقل اذا سمع أخبارهم عرف قدر ما وهب له مما حرموه ، فحثه ذلك على الشكر .

والثاني : ان ذكر المغفلين يحث المتيقظ على اتقاء أسباب الغفلة اذا كان ذلك داخلا تحت الكسب ، وعامله فيه الرياضة ، وأما اذا كانت الغفلة مجبولة في الطباع ، فانها لا تكاد تقبل التغيير .

والثالث : ان يروح الانسان قلبه بالنظر في سير هؤلاء المنجوسين حظوظا يوم القسمة ، فان النفس قد تمل من الدؤوب في الجد ، وترتاح الى بعض المباح من اللهو .

ان ابن الجوزي حين يفرد كتابا خاصا بأخبار الحمقى فهذا يعني أن الدافع الى اهتمامه لم يعد يقتصر على الانتقال بالقارىء من الجد الى اللهو ترويحا عنه كما لدى الجاحظ ، وابن قتيبة ، وابن عبد ربه ، والدينوري . بل انه لم يشر الى هذه الناحية الا ضمن نطاق من عمومية التحول من الجد الى اللهو المباح في الحياة والمجتمع. ولهذه فرأيه يعبر عن مرحلة جديدة في نظرة المجتمع الى الحماقة ، نظرة تقوم على ازدراء التحامق ، والتعالي على الحمقى، وتكريس سلطة العقل على اللا عقل أو الجنون .

ولكن الامر الذي يجعلنا لا نوافق ابن الجوزي في بعض مواقفه انه يدرج الحماقة والتحامق في نسق واحد ، ويعرض عما بينهما من اختلافات اساسية ، ومقارنات بينة بحيث لا يمكن أن يصح هذا التأويل الا على فئة الحمقى البلهاء ، وليس على المتحامقين الذين سخروا طاقاتهم العقلية والجسدية في ابتداع الحماقات ، والنوادر المسلية والمضحكة .

ونضيف الى ما سبق دافعا آخر انطلق منه الادباء في الاهتمام بأخبار الحمقى وحكاياتهم ، وهو الدافع التحريضي على التأليف والابداع . كما يبدو في الظاهر ، ولكنه في الحقيقة يعبر عن التماس المعاذير اتقاء لنقد المجتمع ، ونعتقد أن بعض الكتاب كان يخشى نقد الآخرين في انصرافه الى جمع اخبار الحمقى وفنونهم فأراد ان يعفي نفسه مسؤولية التأليف موحيا انه قام بذلك بعد أن امتحنه آخرون ، او طلبوه منه . كيلا يظن به العجز عن اتيان ذلك .

ومن أقدم المؤلفات التي دافع كتابها عن منطلقهم في هذا المجال كتاب « عقلاء المجانين » للنيسابوري اذ يقول في مقدمة كتابه (٦) « سألني بعض اصحابي عودا على مبدأ أن اصنف كتابا في

عقلاء المجانين وأوصافهم واخبارهم ، وكنت انغامس عنه الى ان تمادى السؤال فلم أجد بدا في اسعافه بطلبته ، واجابته الى بغيته تحريا لرضاه ، وتوخيا لهواه ، وكنت في حداثة سني سمعت كتبا في هذا الباب ، مثل كتاب الجاحظ ، وكتاب ابن ابي الدنيا ، واحمد بن لقمان ، وابي علي سهل بن علي البغدادي رحمهم الله فوقع كل كتاب منها في جزء او ما يقارب جزءا ، تتبعتها وتيقنتها ، وضممت اليها قرائنها ، وعزوتها الى اصحابها ، وألفت هذا الكتاب على غير سمت تلك الكتب ، وهو كتاب يكفي الناظر فيه الترداد ، وتصفح الكتب ، وأرجو أنني لم أسبق الى مثله.

ما نستخلصه من مقدمة النيسابوري انه كان يتحرى الحرص والدقة ، فأشار بروح موضوعية ، وعلمية الى بعض مصادر كتابه ، وأفاد انه نظر فيها ، واعاد تبويبها ، وتنظيم مادتها بطريقة جديدة . فهو في الفصول الاولى يسلط الضوء على عالم الحمقى والمجانين ، وينبه الى أثر الدوافع السياسية والاقتصادية في انتشار التحامق واظهار التجانن ، وهذه رؤية تنم عن عمق تحليله ، وشمول ادراكه لهذه الظاهرة ولم نجد من الادباء الآخرين ، من وقف عندها أو اشار اليها .

ولكن اذا عرفنا أن النيسابوري فقيه ، ومحدث جاز لنا ان نفسر ايحاءه لنا بتأليفه هذا الكتاب على انه حقق به رغبة بعض اصحابه كطريقة لتحاشي نقد الآخرين له ، وما نظنه أن النيسابوري كان مهتما بهذا الموضوع ، متصلا بمصادره منذ حداثة سنه ، ولو لم يكن له هذا الاهتمام لما انصرف للموضوع على هذا النحو من الشمول والاحاطة ، والتنبيه على دور الظروف والملابسات التي تدفع الى التحامق والجنون .

وقد سار كتاب آخرون على نهج النيسابوري واقتدوا بدافعه وغايته ، ومن هؤلاء الحصري القيرواني صاحب كتاب « جمع الجواهر في الملح والنوادر » وهو كتاب يعد من أوسع المؤلفات التي احتوت فنون الحمقى ونوادرهم على الرغم من أن الحصري لايجعل من أخبار الحمقى غايته في التأليف ، فان كتابه ، ومن خلال تركيزه على النادرة كفن مستقل شكل موسوعة عامة عن المتحامقين والمغفلين .

ويؤكد لنا الحصري من جانب آخر انه كتب مؤلفه بوحي من صديق له ، الح عليه فلم يجد مناصا من الاستجابة لرغبته فقال في ذلك(٧) : « سألت اطال الله بقاءك ، وحرس إخاءك من زكا بسقي مودتك زرعه ، وصح فيك حبه ، ان يجمع لك كتابا في جواهر النوادر او لمح الملح ، وفواكه الفكاهات ، ومنازه المضحكات فأجبتك الى ملتمسك بكتاب كللت نظامه ، وثقلت أعلامه ، بذهب يروق سبك ابريزه ، ويروق حوك تطريزه من نوادر المتقدمين والمتأخرين . وجواهر العقلاء ، والمجانين وغرائب السقاط والفضلاء ، وعجائب الاجواد ، والبخلاء ، وطرف الجهال والعلماء ، وتحف المغفلين والفهماء ، ونتف الفلاسفة ، والحكماء . وبدائع السؤال ، والقصاص ، وروائع العوام والخواص وفواكه الاشراف والسفلة ، ومنازه الطفيليين والاكلة ، واخبار المخابيث والخصيان ، وآثار النساء والصبيان » .

ويبدو من هذه المقدمة ان تأليف هذا الكتاب جاء بوحي من شخص لم يسمه لنا الحصري وقد يكون الامر كذلك ، وقد لايكون . فالحصري في كتابه الآخر « زهر الآداب » يخصص حيزا واسعا للنوادر والفكاهات ، ويعيد علينا دوافع الاهتمام بها من ادبية واجتماعية ونفسية ، ويرى ان

أخبار الحمقى والمغفلين ذات أثر ايجابي « ترتاح اليه الارواح ، وتطيب له القلوب ، وتفتق فيه الآذان وتشحذ به الاذهان ، ويطلق النفس من رباطها ، ويعيد اليها عادة نشاطها اذا انقبضت بعد انبساطها(٨) » .

* مناهج التأليف وخطة الكتابة :

من السهل أن نجد ترابطا قائما بين دافع الاديب الى جمع أخبار الحمقى ، ومنهجه في الكتابة والتأليف وكما تنوعت منطلقات الادباء كذلك جاءت طرقهم في تناول المادة ، وخطتهم في بنائها التأليفي واذا رجعنا الى المؤلفات السابقة التي تمت الاشارة اليها فاننا يمكن ان نميز طريقتين اثنتين تمحورت من خلالهما مناهج الادباء الذين اعتمدوا بشكل أساسي على مادة تكاد تكون واحدة في مختاراتهم ، ومن ثم فان مايعول عليه هنا ليس الاستفاضة أو الزيادة في المعلومات ولكنه يرجع الى طريقة التأليف والتصنيف والتبويب.

فأما الطريقة الاولى التي سار عليها بعضهم فتقوم على تناول الحماقة كأحد بنود الكتاب ومحتوياته المتشعبة والمتنوعة التي تشمل فنونا وأبوابا في شتى ميادين الادب والمعارف.

وهذه الطريقة تقسم الى شعبتين في احداهما قام الكتاب بنشر أخبار الحمقى ونوادرهم في أماكن مختلفة من الكتاب ، وأكثر مايكون ذلك بعد فصول يبدو لهم ان القارىء يحتاج الى راحة فيها وانتقال من الجد الى اللهو الممتع ، وهذا مايتجلى في مؤلفات الجاحظ (الحيوان ، والبيان والتبيين) فأخبار الحمقى والمتحامقين ، والموسوسين والمجانين موزعة في درج مؤلفاته دون ان تجمع في باب أو فصل ، وسبب ذلك يرجع الى هدفه المحدد في ايراد هذه الاخبار ، وهو هدف اصبح واضحا بالنسبة للقارىء .

ومن المؤلفات الاخرى التي اتخذ مؤلفوها هذه الخطة كتاب « زهر الآداب » للحصري حيث نجد نوادر الحمقى موزعة هنا وهناك دون ان تجمع في حيز ثابت ، وهذا أيضا يؤكد ان غاية المؤلف كان تنحصر في ايجاد محطات ممتعة ، تشوق القارىء ، وتجدد نشاطه ، ولهذا تعمد الحصري ان تظل المادة منثورة في درج كتابه دون ان يفرد لها فصلا مستقلا .

وأما الشعبة الاخرى ففيها يتخذ الكاتب بابا أو فصلا خاصا بنوادر الحمقى وحكاياتهم ، وذلك بحسب بنية الكتاب : وتوزيع فصوله ، فابن قتيبة في « عيون الاخبار » يستخدم كلمة « كتاب » عنوانا لمضمون الابواب ويعود الى تقسيمها مرة أخرى الى فصول وتفريعات تنضوي تحت هذا الباب كالحديث مثلا عن « كتاب السلطان ، وكتاب الحرب ، وكتاب السؤدد » وغيرها .

وأخبار الحمقى لديه تندرج في « كتاب الطبائع والاخلاق » ونعتقد انه كان مصيبا في تبويبه الى أبعد الحدود ، فتقسيمه هذا يصدق بشكل أساسي على المتحامقين والمتغافلين . لان الحماقة قد تكون طبعا فطر عليه الانسان ، أو تطبعا حمل نفسه عليه ، وارتضاه لها ، وفي كلتا الحالتين لايخرج ذلك عن دائرة الطبائع والاخلاق.

وعلى المنوال نفسه ، ولكن بطريقة شكلية أخرى يسير ابن عبد ربه في العقد الفريد ، فلما كان تبويب كتابه على طريقة نظم العقد فقد وجدناه ينظم الحماقة ونوادرها في موضعين ، فهو يشير الى نوادر الحمقى في « اللؤلؤة الثانية » ويعود مرة أخرى الى الموضوع في « الجمانة الثانية » فيتحدث عن نوادر المتنبئين والمغرورين والبخلاء ، والمغفلين » ونلاحظ هنا ان ابن عبد

ربه يتناول الموضوع من زاويتين ، فمرة ينطلق من دلالة مضمون الحكايات والفكاهات ، وأخرى من خلال الوقوف على شخصيات مبدعيها .

ويكاد النويري يحذو حذو ابن قتيبة تماما فهو ينقل اخبارهم في موضعين من كتابه « نهاية الارب » ولكن طريقة النويري تعكس احياناجانبا من نظرة المجتمع السلبيةنحو الحماقةوالمتحامقين وقد تعبر عن ادراكه لطبيعة هذه النوادر واتخاذها سلاحا اجتماعيا انتقاديا . فهو في كتابه الذي بني على أساس الفنون يدرج أخبار الحمقى في باب«الهجاء » ويرجع مرة أخرى الى الموضوع في باب « المجون والنوادر والفكاهات والملح » ولا تخرج عن هذا المسار بعض المؤلفات الاخرى ومنها كتاب « المحاسن والمساوىء » للبيهقي ، وكتاب « المستطرف » للابشيهي ، وكتاب « محاضرات » الراغب ، فقد احتوت فصولا خاصة بالحماقة ، ونوادر اعلامها.

ونرى ان من المفيد الاشارة الى كتاب« غرر الخصائص »للوطواط ، وهو كتاب متأخر،توسع مؤلفه في تناول ظاهرة الحماقة ، والتغفيل(٩) ، ففصل بينهما على طريقته في تقسيم«الخصائص» الى أبواب تنتظم فيها الفصول ، وهو بهذا التقسيم قد خالف الكتاب والادباء جميعا اذ كانوا يدمجون أخبار الحمقى والمغفلين ، وينظرون اليها على أنها مادة واحدة متقاربة في الهدف والغاية رغم تميزهم بين الحماقة والتغفيل . ولا نريد أن نقول هنا . ان طريقة الوطواط تشكل ابتكارا متفردا في هذا المنحى ، فهو بلا شك قد استفاد من تبويب بعض المؤلفات وخاصة كتاب « عقلاء المجانين » للنيسابوري ، وكتاب « اخبار الحمقى والمغفلين » لابن الجوزي .

يجعل الوطواط الباب الرابع من كتابه « للحماقة » ويبني هذا الباب على ثلاثة فصول هي : ذم الجهالة والجنون ، ذكر نوادر المجانين والموسوسين ، الاحتجاج على ان الحمق أزكى الخلائق » . أما الباب الثامن فهو خاص « بالتغفيل » وقد ضم ثلاثة فصول هي : ذم البلادة والتغفل ، ونوادر بعض المغفلين واخبارهم وفي ان انواع التغفل والبله ستور على الاولياء» ويريد بذلك التميز بين الغفلة ، والتغافل ،وينبه الى مابينهما من فروق.

وفي الطريقة الثانية التي تناول الادباء من خلالها ظاهرة الحماقة يختلف الامر كثيرا ، ويتجاوز اهتمامهم الشذرات والمتفرقات والفصول والابواب الى وضع مؤلفات مستقلة في هذا الغرض . حرص الادباء فيها على الالمام بجوانب الموضوع ، وتشعباته ، واسبابه ، ومظاهره اللغوية ، والاجتماعية ، والادبية.

والمؤلفات التي سارت على هذا المنحى ليست قليلة ، أشار الى بعضها النيسابوري في مقدمة كتابه « عقلاء المجانين » ولكن أكثر هذه المؤلفات قد ضاع او اندثر(١٠) ولم يصلنا سوى كتابين أولهما كتاب النيسابوري ، وثانيهما كتاب ابن الجوزي،وهما كتابان هامان لايمكن الاستغناء عنهما في هذا الجانب.

فالنيسابوري في كتابه يفصل القول في معنى الجنون والحماقة ،ويذكر أسماء الحمقى والامثال المضروبة فيهم يعقد سبعة فصول قصيرة،ولكنها هامة للغاية ، يكشف فيها عن أسباب الجنون ، ودوافع الحماقة ، وهي أسباب تبرز أثر العوامل الدينية ، (من اعتقد بدعة ، وارتكب كبيرة فأدركه شؤمها فجن) والعوامل الاجتماعية (من تجانن

وهو صحيح العقل ، ومن تحامق لينجو من بلاء، ومن تحامق ليرخي وقتا ، ويطيب عيشا) والاقتصادية (من تحامق لينال غنى) وأخيرا السياسية منها (ضروب الجد والهزل ، ودولة الحمق والجهل) .

ثم يترجم النيسابوري لاكثر من (١٠٧) من أعلام الحمقى والمجانين ، والموسوسين ، والممرورين ، فيذكر نتفا من حيواتهم ، ومواقفهم وأخبارهم ، وأقوالهم بحيث تفي هذه التراجم باغناء جوانب الفصول السابقة وتوضيحها .

اما كتاب الحصري « جمع الجواهر في الملح والنوادر » فهو برمته مكرس للنوادر والفكاهات والمؤلف لم يلجأ الى تبويب خاص لها ، ولم تكن غايته تسليط الضوء على عالم المتحامقين كما صنع النيسابوري بقدر ماكان يهدف الى جمع أكبر عدد من النوادر والحكايات المسلية.

واذا كان النيسابوري ، والحصري قد بينا ان الدافع الى الكتابة في هذا الموضوع يرجع الى تلبية رغبة ، او انجاز لمطلب صديق ، فان ابن الجوزي يكشف عن دوافع وقائية واجتماعية في تناوله لهذه الظاهرة . ولهذا فهو حريص على الالمام بجوانب الحماقة والجنون.

وابن الجوزي يسير على خطا النيسابوري ولكنه اختط منهجا آخر ، وتوسع في التبويب والتقسيم ، فكتابه يقع في أربعة وعشرين بابا : عرف فيها الحماقة ، وذكر معناها ، وبين انها غريزة ، وذكر تباين الناس في الحمق ، وأسماء الاحمق وصفاته ، وما قيل في التحذير من صحبة الاحمق ، والامثال المضروبة بمن عرف حمقه ، وساق بعض الاخبار عمن ضرب المثل بحمقه وتغفيله ، ثم جعل الابواب الاخرى في تقسيم فئات الحمقى منطلقا من اعتبارات اجتماعية ومهنية فيذكر مشاهير الحمقى من العقلاء ، والقراء ، ورواة الحديث ، والقضاة ، والامراء ، والكتاب والمؤذنين والائمة ، والاعراب ، والقصاص ، والمتزهدين ، والشعراء ، والحاكة ، ثم في ذكر المغفلين على الاطلاق » .

والطريف في كتاب«أخبار الحمقى والمغفلين» أن ابن الجوزي باعتماده هذا التبويب يوحي لنا من طرف خفي ان الحماقة ليست حكرا على فئة من الضعفاء والمعدمين ، والمنبوذين اذ نجد من بين ولاة الامور ، وذوي الشأن من اشتهر بحمقه ، فعرف عنه ذلك ، وتناقلته الاخبار فهل كان ابن الجوزي يدافع عن العامة بقصد او أن ذلك ورد عفو الخاطر ، وسواء صح هذا او ذاك، أو كلاهما معا ، فكتابه يحتمل هذه التأويلات مجتمعة .

* الرؤى والمواقف :

أن استعراضنا دوافع اهتمام الادباء بالحماقة ونوادر المتحامقين ، وغاياتهم في البحث ، وطريقة استخدامهم للمواد الادبية ، وتصنيفها يصل بنا الى استخلاص قد لايكون دقيقا حول رؤى الادباء ومواقفهم من هذه الظاهرة، وافرادها ،والمؤثرات السابقة تجعلنا نقول : ان اكثر تلك المواقف كانت حيادية بمعنى ان الاديب كان ينقل المادة دون ان يدفعه ذلك لاطلاق حكم اجتماعي او اخلاقي على مبدعيها من المتحامقين والمتجانين ، واكثر الادباء لم يتعد اهتمامه جمع هذه المادة وعرضها بأساليب ، وطرق مختلفة ، فلم نجد تحليلا للظروف والمعطيات الاجتماعية ، والمتغيرات السياسية ، والاقتصادية التي أدت الى بروز أدب الحمقى ونوادرهم واشعارهم . ويستثنى من ذلك موقف النيسابوري الذي شكل وعيه مرحلة متقدمة في تحليل الظروف التي قادت الى ذلك

ويستخلص من تحليله أنه كان متعاطفا مع شرائح الحمقى والمجانين . وهو أكثر وضوحا في مواقفه من الادباء الآخرين .

ونحن بشكل عام نفتقد الرؤية القادرة على ادراك طبيعة هذه الظاهرة ، مثلما نفتقدالتحليل العميق فقد تم تناول المادة بمعزل عن اطارها العام ، ومسبباتها ، وفي هذا فصل يلحق الضرر العلمي في فهمنا واستيعابنا لموضوع الحماقة. فاذا اتفقنا على أننا لانجد موقفا واضحا صريحا فان النظرة العامة تتيح لنا تمييز موقفين للادباء أقرب مايكون أحدهما الى السلب ، والآخر الى التعاطف .

فالجاحظ ذو النزعة العقلية في التأليف والكتابة . وتحليل ظواهر المجتمع ينطلق أحيانا من رؤية متضادة يذم فيها الشيء ويمدحه ، وكأنه يريد ان يكشف عن الجدل او التضاد اللذين تحملهما الاشياء ، ومن هذا المنطلق نجده أحيانا ينال من أدب الحمقى ، وينتقص من طباعهم ويحط من شأنهم فيقول :

« وكانوا يعيبون النوك ، والعي ، والحمق وأخلاق النساء ، والصبيان »(١١) وتبدر منه مواقف ناقدة ساخرة ، ولكنه يظل بعيدا عن اطلاق رأي حاسم ربما بتأثير من نزعته العقلية والجدلية .

وهذا الموقف السلبي يظهر في كتاب « المحاسن والمساوىء » للبيهقي ، وهو مصنف لايلخص لنا موقف المجتمع من الظواهر ، والمهن، والعادات فحسب ، ولكنه يعبر عن الطريقة ذاتها التي كان الجاحظ ينظر فيها للاشياء ، ومن دلالة عنوان كتاب البيهقي نستدل على موقفه في ذم الشيء ومدحه وعرض محاسنه ومساوئه في آن واحد(١٢) . وهو هنا يتحدث عن « مساوىء الحمقى » ثم يعقد فصلا آخر عن « محاسن المضاحيك » فيكشف عن تضاد سبقه الجاحظ اليه من قبل دون ان يكون له رأي مستقل .

أما الموقف الثاني : فهو موقف ينم عن تعاطف انساني مبهم ازاء هؤلاء « المنجوسين حظوظا » على حد تعبير ابن الجوزي ، ويأخذ أحيانا هذا التعاطف شكل اطراء واعجاب بشخصياتهم ، ونوادرهم كما يفهم من قول ابن قتيبة عن هذه الفئات : « ان أخبارهم حدائق مونقة ، ورياض زاهرة لما فيها من كل طرفة، ونادرة ، فكأنها أنوار مزخرفة ، وحلل منشرة ، دانية القطوف من جاني ثمراتها ، قريبة المسافة لمن طلبها »(١٤) .

ماذا يمكن ان توحي لنا دراسة أدب الحمقى في المصادر الادبية ، وماذا يمكن ان نستخلص على ضوئها من مؤشرات هي بمنزلة النتائج المستندة على تلك المقدمات الاولية . ان تلك الجولة السريعة تصل بنا الى تقرير المعطيات التالية :

ـ لقد كان اعتمادنا على مصادر لم تكن للحمقى أنفسهم ، على الرغم من أنه قد نسبت اليهم مؤلفات كثيرة ، يعني أننا بشكل أو بآخر أمام نصوص انتقائية ، جرت عليها تعديلات ، وتعرضت للحذف أو التنقيح مراعاة لأكثر من سبب ، يضاف الى ذلك ان هؤلاء الادباء لم يدرسوا هذه الحكايات ، والنوادر ، والاشعار من داخلها ، وانما كان تعاملهم مع هذا النتاج يقترب من الملامسة السطحية العابرة، التي ركزت على الاضحاك ، والامتاع دون ان تقف على محتوى أبعاده الاجتماعية والانسانية، والاقتصادية، وهذا يعلل سبب عدم تبلور موقف نقدي ، وتقويمي

لأدب المتحامقين ، مثلما يصل استخلاص الادباء لشذرات متفرقة ، ومقتطفات سريعة ، ضمن سياق عام بعيد عن التركيز والتخصيص.

ـ وهذا أمر أدى بالنتيجة الى شيوع سمة السطحية ، وتراكم الاخبار ، وترادفها في تلك المؤلفات ، ويلاحظ ان الادباء أهملوا كثيرا الاشعار والحكايات التي تدل على النقد الاجتماعي، والتي تكشف عن التناقضات التي أشار اليها المتحامقون ان أكثر النوادر التي احتوتها مصادر الادب ذات طبيعة محادية لاتحمل موقفا ، او تنقل وجهة نظر الا فيما قل ، وتكاد غايتها تنحصر في الاضحاك والامتاع .

في حين ان للحقيقة وجها آخر فنصوص المتحامقين تنقل في طياتها صورة دقيقة عن أزمات الانسان المثقف في وسط أخذ يجنح الى الجهل، وأصبحت فيه آلية السيطرة ، والنفوذ بيد الاغنياء والموسرين فكشف أدب هذه الفئة عن شكل من أشكال الصراع بين العلم والجهل، وبين العقل واللاعقل ، ولكن اهمال الادباء لهذه الجوانب جعلنا نخسر المصادر الهامة التي تكشف النقاب عن صفحات مطوية وعلاقات شاذة كانت تسري في القاع الاجتماعي ظلت طي الكتمان لايراد لها أن تبرز كيلا تشوه الصورة المشرقة التي ترسمها نصوص الادب الرسمي المقرب الى نفوس الحكام وأرباب السلطة والنفوذ .

وهنا ندون اعتراضا آخر على هذه المؤلفات انها جمعت أخبارا ومرويات لم تسلط الضوء على نحو كاف لمعرفة مجتمع الحمقى ، ودنيا المغفلين، وطقوس الموسوسين ، والمتجانين . فهذه الفئات التي أصبح لها وجودها الخاص والمستقل من غير المعقول أن تنشأ في يوم وليلة ، وشعور الحمقى يتميزهم كفئة لها نواظمها ، وعلاقاتها يدل على التشكل التاريخي البعيد المدى لهذه الفئة ولعل اطلاق المجتمع على افرادها تسميات خاصة كالمخنثين ، أو المجان ، والصفاعنة ، انما يدل على طور من أطوار الصراع الدائر بين المجتمع الرسمي ، أي مجتمع السلطة والمؤسسات ، والانظمة والتقاليد السائدة التي لا يراد لها أن تتزعزع . أو يهزأ من قدسيتها أحد .

هذه الجوانب الدقيقة لا نجد ما يعبر عنها، وكأنها لاتعني اولئك الادباء ، وهكذا ظلت صورة مجتمع الحمقى صورة غامضة ، ضبابية، لانعرف عنها الا القليل الذي لايفي لتكوين فكرة شاملة ، متكاملة ترشدنا الى ملامح مجتمع الحمقى ، وعلاقات افراده ، وطقوسهم ، واساليب عملهم وفنهم الشعبي الهام .

ـ ولعل المتفحص لمحتوى المؤلفات الادبية يلاحظ دون عناء كبير ان الادباء ساروا في طريق الاتباع والتقليد أكثر مما ساروا في درب الابداع، والابتكار ، والتفرد بالمعلومات والاخبار، فالنسبة العظمى من نوادر الحمقى تكاد تكون موجودة في كل تلك المؤلفات دون استثناء ، وبالتالي فان المصادر السابقة لا تغني في كثرتها لاعتمادها على مادة متقاربة أو متطابقة، وهذا يدل على أن بعض الادباء كان بعيدا عن ظاهرة الحمقى اجتماعيا ، وقريبا منها ادبيا وتأليفيا ، فهو لم يستق أخباره من الاتصال بالحمقى والاختلاط بهم ، ولكنه أخذ ذلك نقلا عمن سبقوه من الكتاب .

وهذه الحقيقة تفسر لنا سبب ابتعاد بعض الادباء عن مجتمع الحمقى ، وفقر معلوماتهم عنه، وجهلهم بسماته ومكوناته ، وقد دفع تكرار المادة على الصعيد الشكلي الى تلاعب الكتاب في عرض الاخبار ، وتقديم بعضها او تصنيفها في ابواب

وفصول . ومن يقارن على سبيل المثال بين كتاب النيسابوري (عقلاء المجانين) ومؤلفات ابن قتيبة وابن عبد ربه ، والنويري ، وابن الجوزي ، والبيهقي ، وسواهم من الادباء الذين تعرضوا لظاهرة الحماقة ، فلا بد ان يجد التطابق الكلي في ايراد النوادر ، والحكايات ، والاشعار وقلما نجد اضافة جديدة في هذا الكتاب أو ذاك .

ـ ولا يجوز في هذا المقام ان تفهم الملاحظات السابقة على انها انتقاص من جهود هؤلاء الادباء، فما نقلوه ودونوه كان عملا لايستهان به ، وله شأن هام في الحفاظ على أخبار تلك الفئة ، ونقل صوتها ، والتعبير عن قلقها ، ومعاناتها . وان لم يكن ذلك بالطريقة التي كنا نتمنى أن تكون، الا أن هذا القدر اليسير والمجتزأ بطريقة قسرية أتاح لنا ان نمتلك مقاربات اولية لاغنى عنها الآن للدخول الى عالم الحمقى والمتحامقين . ولولا هذه المتفرقات من الاخبار لطمست حياة هذه الفئة واندثرت أصداؤهاعلى غرار فئاتاجتماعية أخرى ، وان كنا نتطلع الى دراسات اكثر عمقا وشمولا ، فان الامر يتطلب مزيدا من التنقيب والتأني والبحث في متون المخطوطات ، وخاصة المخطوطات التي تنقل اصوات المتحامقين والمتجانين أنفسهم ، وليست المكتوبة عنهم ، مع تأكيدنا أن هذا الصنف من المؤلفات كان مصيره الاهمال ، والاعراض من الباحثين المعاصرين، وربما كان ذلك بسبب استمرار الولع بمظاهر الادب الرسمي البراق الذي يخفي ببريقه وزخرفته بؤس الفئات الدنيا ، ويكتم بصخبه المدوي اصواتهم المعذبة ، وحشرجاتهم المتألمة المكبوتة .

ـ واذا كنا قد أخذنا على ادبائنا القدامى نزعتهم التقريرية، التسجيلية ، ونظرتهم المحدودة في فهم الحماقة على أنها نوع من الاضحاك ، والتسلية ، فالعجب اكبر حين تظل هذه النظرة معيار كثير من الدراسات الحديثة التي لا ترى في نوادر المتحامقين أكثر من دلالتها على الضحك والترفيه دون أن تتجاوز ظواهر الاشياء الى بواطنها ، ودون ان تكشف عما وراء ذلك الضحك من آلام ومعاناة ، ودون قدرة على ربط تلك الظواهر بالحياة العامة ، واكتشاف اسبابها ومسبباتها . ان كثيرا من الباحثين قد تغافل عن هذه الجوانب واهملها ، ولم يفطن اليها ، ومن بين تلك المؤلفات العديدةنسوق مثالا كتاب « جحا الضاحك المضحك » للعقاد ، وقبل ان نستجلي ملامح رؤية العقاد لهذه الشخصية التراثية ، نود ان نذكر أنجحامن مشاهير المتحامقين والمتغافلين، وقد فطن الى هذا السلوك ابن الجوزي في كتابه « أخبار الحمقى والمغفلين » فقال : « وقد روي عنه ما يدل على فطنة وذكاء الا ان الغالب عليه التغفيل (١٥) » وهذه عبارة يفهم منها أن جحا كان متحامقا وليس احمق وبناء عليه فنوادره ليست للاضحاك المطلق المجرد من روح الانتقاد والسخرية المرةالتي ترتدي غلالةالاضحاك والبلاهة تمويها وموارية .

فالعقاد لا يقيم وزنا لهذه الغاية، ولا تعنيه مطلقا فهو في كتابه يتتبع ظاهرة الاضحاك لدى مختلف الامم ، ويبحث في سيكولوجيةالاضحاك، ويستعرض آراء برجسون وفرويد في طبيعة الضحك ، ويقتبس عشرات النوادر والفكاهات المضحكة من تراث الشعوب ، ويختار « ستين » نادرة من نوادر جحا تدور حول موضوعات انتقادية شتى ، وما يهمنا فيما نذهب اليه هو رأيه النقدي والتحليلي لهذه النوادر اذ يقول(١٦): « ومعظم نوادر جحا من قبيل هذه النوادر

الساذجة في تأليفها ، وموضع الحكمة فيها ، ولعلها ثلاثة ارباع المجموعة التي بلغت قرابة ستمائة وعتها المطبعة التركية كلها الا القليل الذي تناثر من صدر الاسلام الى ايام الدولة العباسية بين كتب الادب والفكاهة ، وفيها من الاسلوب الادبي والذوق الفني ما ليس في معظم النوادر الشائعة » .

وهكذا يبدو موقف العقاد بعيدا جدا عن استكشاف ما وراء هذه النوادر من دلالات وغايات وكأنه يرى أن القيمة الفنية للنادرة في الاضحاك اسمى من التفكير في خلفياتها الاجتماعية والنفسية.

هذا مثال من بين نماذج ادبية اخرى (١٧)، ودراسات شائعة لم يحفل مؤلفوها بتحليل اعماق المتحامقين . والنقاد الى ما وراء ظاهر حماقاتهم من جد ، ونقد ، وما يشف عنه ضحكهم من أسى دفين .

ان استمرار هذه الرؤية في استعادة هذا الموروث الادبي في نطاق اللهو والعبث ليس اكثر من تكريس للموقف السلبي ، والرؤية الضيقة التي تجرد هذا الادب من قيمته الفكرية والنقدية، وتحول دون استيعابه على حقيقته ، ليظل عن عمد أو غير عمد في دائرة الظل والنسيان ، ويظل اعلامه في قفص الادانة ، والتشهير والاتهام .

* * *

ـ هوامـــش ـ

١ ـ الحيوان ، الجاحظ ، ٢/٣ ، وتبرز غايته التاليفية في البيان والتبيين ٣٦٦/٣ اذ يقول : « وجه التدبير في الكتاب اذا طال ان يداوي مؤلفه نشاط القارىء له ، ويسوقه الى خطه بالاحتيال له فمن ذلك ان يخرجه من شيء الى شيء ، ومن باب الى باب » .

٢ ـ الحيوان ، الجاحظ ٧/٣ .

٣ ـ العقد الفريد ، ابن عبد ربه ١٤٢/٦ .

٤ ـ عيون الاخبار ، ابن قتيبة ص ٦ ، ونهاية الارب للنويري ١/٤ .

٥ ـ اخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزي ص ١٥ .

٦ ـ عقلاء المجانين ، النيسابوري ص ١٥ .

٧ ـ جمع الجواهر في الملح والنوادر ، القيرواني ص

٨ ـ جمع الجواهر في الملح والنوادر ، القيرواني ص ٢.

٩ ـ غرر الخصائص ، الوطواط ص ٧٢ .

١٠ ـ عقلاء المجانين ، النيسابوري ص ١٥ .

١١ ـ البيان والتبيين ، الجاحظ ٢٤٤/١ .

١٢ ـ المحاسن والمساوىء ـ البيهقي ص ٥٩٢ .

١٣ ـ اخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزي ص ١٥ .

١٤ ـ عيون الاخبار ، ابن قتيبة ، ص ٦ .

١٥ ـ اخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزي ص ٤٤ .

١٦ ـ جحا الضاحك المضحك ، العقاد ص ١٦٩ .

١٧ ـ الفكاهة في الادب العربي ، فتحي محمد معوض أبو عيسى ص ٥ .